بجماليـــون

تحية الأديب وعرضه للكتاب

الأستاذ فخرى شهاب السعيدى

جاء كتاب توفيق الحكيم الجديد فى شكل حوار لأبطال بعضهم من أساطير اليونان ، وابتدع لهم من خياله الخصب عبارات ذلك الحوار ، وهيأ لهم جواً رمزيًّا يصلح لهم ، وتتناوبهم فيه العواطف والمشاعر

ما الحياة ، وما الفن ، وما ميزان الحكم عليهما ؟ وما المرأة ، وما الرجل ، وما وجه المفاضلة بينهما ؟ وما فكرة الآلهة والمخلوقات وما مقاييس الأحكام على الأمور عندها ؟ ما الخلود ، وما الفناء ؟ وما العقل ، وما الجنون ؟ ! ما هى الحكمة ؟ وكيف يوصف وتعرف وتقدر ، وما البطش بالقياس إليها ، وكيف يكون اتقاؤه والحذر من التورط فيه ، وهل إلى ذلك من سبيل ؟ ؟

وما هو الجمال وما هو الحب ؟ وما مقدار لصوقهما بالحياة واتصالهما بها ، وهل هما وقف عليها ؟ !

تلك — ومثلها أكثر منها — أسئلة البشرية الخالدة التى مرت بكل فكر ، وطلبت أجوبتها من كل حكيم ... وما دام البشر محدود القوى بالنقص والفناء ، فإنه سيفتنّ فى التسآل والأجابة ، وفى الأخذ والرد ، والإقناع والاقتناع ، كل هذا تطميناً لفضول القوى العاقلة التى تثيرها فى نفسه مشاهد الكون !

... أما عن الفن والحياة ، فهما لدى توفيق الحكيم فكرتان إحداهما تُتمّ الأخرى لإبداع الكمال المطلق الذى يتخيله فى أذهانهم أرباب المثل العليا فى الحياة ، وهما من أجل إيجاد هذا الكمال ينبغى أن يكونا متلازمين تلازماً يضيق عنه إدراك البشر المحدود ؛ ومن هنا تبدأ عقدة القصة الفلسفية فى الظهور : فصانع التماثيل (المثّـال) « بجماليون » رجل فنى نزاع إلى الكمال المطلق ، ولكن نزوعه هذا نزوع يكتنفه الغموض ، لأنه لا يدرى به ولا يدرى كيف يستقيم له هذا الكمال : هو يريد الحياة ، لأن فى أعماق نفسه شعور الإنسان الحى الذى إذا رنا إلى غاية نفسه الحية ألفاها متمثلة فى الجسم النابضة عروقه بالحرارة والحياة ... وهو يحب الفن لأن فى طبيعته قبساً من عبقرية الخالقين المبدعين ... وفى سريرة نفسه الصافية التى مزجت قوة الإبداع بجمال الحياة ، استطاع أن يجمع بين النقيضين ؛ وإلى ذلك توصلت روحه ؛ ولكن عقله — وهو بشرى محدود — لم يهتد إلى سر التوفيق بين ما يقع تحت فهمه من تناقض ظاهر فى فكرتى خلود الفن وزوال الحياة ، وبين طمأنينة روح « بجماليون » ونفسه إلى هذا التنافر البين الواضح ..؟ وفى هذه المرحلة من القصة ، تصل الفكرة الفلسفية إلى أبعد أغوارها ، وتبدو عقدة الرمزية فيها رائعة الجمال ، تمثل أروع تمثيل وأصدقه ما يقوم من خلاف بين العقل فى حدوده المادية من جهة ، وبين الروح والنفس فى جوهرهما المتجانس الموحد من جهة أخرى . وعلى قدر سعة اختلاف النظرتين ، وبمقدار قصور العقل عن فهم ما تشمله الروح من آفاق ، وما تصل إليه النفس من حقائق ، يشتد الغموض على المثال البطل ، ويشتد كرب نفسه ، وتنشأ هموم العناء والعيش فى المجهول ... ولا يدرك هذا الألم النفسى الهائل الناشئ بين العقل والروح عن اختلافهما فى الفهم واختلاف طبيعتيهما فى شمول الأشياء والنفوذ إليها ، إلا عبقرى كالبطل المثال ، أو عبقرى كالبطل الكاتب الحكيم !

وإذا عرفنا بعد هذا أن العقل هو الحكم فى هذه الخصومة التى بينه وبين الروح عرفنا شقاء هذا البطل الشاب « بجماليون » ومقدار الحيف الذى لحق روحه الشاعرة وقواه المبدعة وصفاء نفسه الجميل !

قال العقل[1] : « قوة الفن ! وما قوة الفن تلك التى يستطيع بها المالك أن يخلق الخالد ! »

وقال الفن[2] : « ردوا علىّ عملى ... ردوا علىّ « جالاتيا » كما كانت تمثالاً من عاج ... أيها الآلهة ، دعونى وشأنى ، لنفسى ومخلوقات نفسى ، ما أنا إلا صنوكم ونظيركم ؛ بل إنى عليكم

(١) ص ٣٩ (٢) ص ٨١

سموت ، وعلى قدرتكم تفوقت ، فأنتم ما فعلتم غير أن أفسدتم الجمال الذى أقمت . . . أفسدتم جمالى الخالد ، أفسدتم جمالى الخالد » .

وقالت الحياة كلاماً كثيراً ولكن على غرار ما نطقت به قولها[1] : « نعم ! المودة والرحمة . . . أشياء تعطيها الحياة ، ولا يستطيع أن يعطيها الفن ! »

وقال المثال كلاماً أطول من كلام الحياة ولكن كلمتين صدرتا منه أدين بهما في هذه الخصومة ، وهما قوله فى موقف المقارنة بين « جالاتيا » صنماً و « جالاتيا » امرأة[2] : « كل ما فيك محدود وكل ما فيها غير محدود » وقوله فى معرض الاعتراف بانكساره وخطيئته[3] : « الخطيئة التى كُتِبَ على كل فنان أن يحمل وزرها . . . الافتتان بالنفس ، الافتتان بالذات ! » ولولا صدور هذين الاعترافين لما حُكِم على « بجماليون » المثال العبقرى الحىّ أن يموت وعلى آيته « جالاتيا » الخالدة أن تحطم تحطيماً[4] !

* * *

تلك هى الفكرة الرئيسية التى تقوم القصة عليها ؛ ولكن ليس معنى ذلك أن الأفكار الفلسفية الأخرى أقل منها روعة أو أضعف شأناً ؛ ففكرة الرجل والمرأة والمفاضلة بينهما ، وتمييز الرجولة بشهامتها على الأنوثة بضعفها ومكرها ، وحبها الإطراء وانخداعها به ، وولوعها بالمكابرة ورغبتها فى الانتقام ، فكرة واضحة تامة الوضوح فى تصرفات الآلهة « ڤينوس » وفى هباتها وكلامها وكل دورها الذى قامت به فى المسرحية

أحب بعد هذا أن أشير إشارة سريعة إلى فكرة أحسبها أسمى الأفكار الرمزية التى وفق إليها الأستاذ فى هذا الجهد الرائع الجديد ، تلك الفكرة التى أزال بها الحجاب بين الحى والجماد ، وسما إلى نوع من الرمزية الحلولية الروحية التى لم تُقم للفارق العقلى الذى يأبه الناس له وزناً فى التفريق بينهما . بل اعتبرهما جدولين لا يلبثان أن ينصبّا فى خضم الوجود العظيم ، وهما إذا تمّا عن شيء فعن وحدة متجانسة ينضم إليها كل ما فى الكون والوجود . وإنك لترى ذلك واضحاً متمثلاً فى مخاطبة الجماد بأسلوب الأحياء ، وإنطاقه بما يعرب عن مثل أحاسيسهم ومشاعرهم . على أنه فى هذه المحاولة الناجحة لم يخرج عن كونه جاء بصورة أخرى للعذاب الذى لقيه المبدع البديع « بجماليون » حين تعذر عليه أن يمزج جمال الفن الخالد الذى أنطق الجماد به ، برقة الطبيعة الحية الفانية التى تمثلها جلاتيا امرأة سوية الخلقة دائمة التكوين . ولكن الفرق بين العبقريين : العبقرى المثال ، والعبقرى الكاتب الأديب ، أن الأول أطاع عقله واحترم مقاييسه المادية ، أما الثانى فقد استعار الحلول وسيلة إلى إظهار ما يريد بمظهر يصدق الإعتماد عليه[1]

أكتفى بهذا المقدار لأسمع رأى الناقدين فى هذا الأثر الخالد الجيد . وإذا أذن الصديق فى سماع تحيتى وقبول تهنئتى فليسمع ذلك إذاً متجلياً فى قولى إن أثره هذا وإن يكن مصدره الغرب ، سيرتد بعد أن اتشح بوشاح من عبقرية شرقية إلى مصدره بعد قليل على قلم ناقل أو أسلة مترجم معجب محب !

فتحى شهاب السعيدى

(١) ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٤٥

(١) ص ١٦٤ (٢) ص ١٤٧ (٣) ص ١٢٣
(٤) آخر الفصل الأخير

إدارة البلديات — المياه

تقبل العطاءات بادارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر ٣ أكتوبر سنة ١٩٤٢ عن توريد أدوات مياه لمجلس المنزلة المحلى وتطلب الشروط من الادارة نظير مبلغ ٢٠٠ مليم ٩٧٨٦